

مشروع ابن باديس الإصلاحى بين المحافظة على القيم والتفتّح على الآخر.

الأستاذ: حمدي لكحل
أستاذ بالمركز الجامعي، غليزان
hamdiphilo@yahoo.fr

الملخص:

ولعل من بين الشخصيات في الجزائر التي استطاعت أن تنتج مشروعاً إصلاحياً قد يستفيد منه مجتمعنا اليوم الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940م) صاحب خطة مُلهمة، ونظرة ثاقبة للأحداث والوقائع استطاع في الظروف الحالكات صياغة مشروع إصلاحى واجه به المشروع الاستعماري الذي كان يستهدف هوية الفرد الجزائري من دين ولغة وأخلاق ووطن، لكن ما يلفت الانتباه أن أفكار ابن باديس الإصلاحية ليست أفكاراً تراثية بسيطة منغلقة، وإنما أفكاراً حديثة كذلك توفيقية بين المحافظة على القيم من جهة وبين التفتّح على الآخر من جهة أخرى، وهذا ما حاولت هذه الورقة أن تكشف عنه وتؤكد، ولبلوغ ذلك يجدر بنا طرح التساؤلات الآتية:

ماهي المقومات التي قام عليها المشروع الإصلاحى عند ابن باديس؟

مادور التربية والتعليم فيه؟ كيف استطاع ابن باديس أن يقدم رؤية توفيقية بين المحافظة على القيم من جهة والتفتّح على الآخر من جهة أخرى؟

الكلمات المفتاحية: الإصلاح؛ القيم؛ التفتّح؛ الآخر؛ ابن باديس.

تقديم :

يعاني الوطن العربي اليوم من أزمات حادة اقتصادية وسياسية وثقافية واجتماعية وتربوية جعلت الأمة العربية تعيش على هامش التاريخ، أمة مستهلكة لا منتجة تتلاعب بها الدول الغربية العظمى بما يخدم مصلحتها أي مصلحة هذه الدول، ويرجع السبب في كل ذلك إلى عوامل عدّة من بينها الاستعمار بأشكاله المختلفة المباشرة منها (عن طريق التدخل العسكري)، وغير المباشرة (عن طريق الانتداب والوصاية والتبعية).

ولا نكاد نجانب الصواب إذا قلنا أنّ أمراض الأمة العربية تزداد يوماً بعد يوم، وما يحدث من اضطرابات سياسية وانقسامات عرقية وطائفية وايدولوجية في الكثير من الدول العربية (ليبيا، مصر، سوريا، اليمن... الخ) بمسمى الربيع العربي إلا دليل على ذلك.

إضافة إلى ذلك العالم اليوم متجه نحو رؤية جديدة أصبحت العولمة أحد مظاهرها بسبب التقدم الذي شمل مختلف جوانب الحياة خاصة الثورة المعلوماتية المتدفقة حيث أضحت الأمة العربية تشاهد بالأعين وتنبهر بما يحدثه الآخرون دون مشاركة، وكأن العقل العربي لا يقدر على التفكير، والإبداع، والإنتاج، وُجد هكذا لينفعل دون أن يتفاعل إيجابياً.

لكن نهضة الأمة العربية لا يمكن أن تتحقق إلا بإصلاح أوضاعها المتردية وفي ميادين مختلفة بما يخدم التنمية والتقدم، وهذا بصياغة مشروع إصلاحي فعّال يساهم بإيجابية في إخراج الفرد العربي من حالته المتخلفة إلى حالة من التطور والتحضّر، وهذا بالرجوع إلى التراث والاستفادة منه ولو في بعض جوانبه مع الأخذ بنتائج العلوم الحديثة.

ولعل من بين الشخصيات في الجزائر التي استطاعت أن تنتج مشروعاً إصلاحياً قد يستفيد منه مجتمعنا اليوم الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889-1940م) صاحب خطة مُلهمة، ونظرة ثاقبة للأحداث والوقائع استطاع في الظروف الحالكات صياغة مشروع إصلاحى واجه به المشروع الاستعماري الذي كان يستهدف هوية الفرد الجزائري من دين ولغة وأخلاق ووطن، لكن ما يلفت الانتباه أن أفكار ابن باديس الإصلاحية ليست أفكاراً تراثية بسيطة منغلقة، وإنما أفكاراً حديثة كذلك توفيقية بين المحافظة على القيم من جهة وبين التفتح على الآخر من جهة أخرى، وهذا ما حاولت هذه الورقة أن تكشف عنه وتؤكد، ولبلوغ ذلك يجدر بنا طرح التساؤلات الآتية:

ماهي المقومات التي قام عليها المشروع الإصلاحي عند ابن باديس؟

مادور التربية والتعليم في هذا المشروع الإصلاحي الباديسي؟
كيف استطاع ابن باديس أن يقدم رؤية توفيقية بين المحافظة على القيم من جهة والتفتح على الآخر من جهة أخرى؟
وقد تضمنت هذه المداخلة العناصر الآتية:

1- التعريف بابن باديس (ابن باديس الفكر والشخصية).

ينحدر الشيخ عبد الحميد ابن باديس من أسرة قسنطينية مشهورة بالعلم والثراء والجاه كانت منذ القدم ذات نفوذ سياسي في المغرب الإسلامي، نبغ منها شخصيات تاريخية لامعة منها بلكين بن زيري (ت984م) والمعز بن باديس (ت1061م) الذي كان ابن باديس كثيراً ما يفتخر به¹ كيف لا، وهو الذي سلّ

¹ - صالح فرкос: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع ، دون طبعة ، 2005م ، ص 72.

سيفه ضدّ البدع والضلالات ثائراً على الدولة العبيدية الشيعية في مصر ومذهبها الشيعي الرافضي، حتى أعاد الاعتبار للمذهب المالكي السنّي في المغرب الأوسط وربوع إفريقيا. أما أسلافه المتأخرين فنذكر منهم المكيّ بن باديس (ت1899م) الذي كان قاضياً وعالماً جليلاً عُرف بغزارة علمه و سعة إطلاعه في الفقه والعلوم الإسلامية الأخرى.¹ ولم يكن عالماً في الدين فقط، وإنما كان سياسياً محتكاً عمل طوال حياته على الدفاع عن حقوق الجزائريين.

ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة عاصمة الشرق الجزائري مساء يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني 1307هـ، الموافق ل: 04 ديسمبر 1889م وهو الولد البكر لأبويه، وقد تربى تربية إسلامية أصيلة ساهمت فيها أسرته، خاصة والده محمد بن المصطفى بن باديس، وأمه زهيرة بنت جلول، التي كانت هي الأخرى تنتمي إلى أسرة شريفة عرفت بنسبها ومكانتها في قسنطينة، زوّجه أبوه بابنة عمه يامنة بنت باديس حين بلغ الخامسة عشر من عمره (1904م) لكنه لم يكمل حياته معها بسبب رفضها المكوث مع والديه فلم يتزوج بعدها أنجبت له ولداً أسماه عبده اسماعيل الذي توفي وعمره سبعة عشر عاماً إثر حادث مروّع ومفاجيء ورغم كل هذا إلا أن ذلك لم يثن من عزمته، ولم يثبّط من إرادته للدفاع عن دينه، الإسلام الحنيف وعن لغته العربية الشريفة، وعن وطنه الجزائر المجيدة لذلك يعتبر البيت الباديسي أحد البيوتات المشهورة بنضالها وعلمائها وفقهائها في الجزائر خاصة، والوطن العربي عامة فقد حاز هذا البيت

1 - تركي رايح عمامرة : الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط2، 2003، ص 29 .

شهرة بين بيوتات مدينة قسنطينة على أكثر من مستوى ودور أنجب العلماء والقضاة.²

أما عن تعليمه وأساتذته، فقد اختار له أبوه من خيرة الأساتذة وأكفئهم وأشرفهم حرصاً منه على تربية ابنه تربية صالحة وتعليمه تعليماً نافعاً. حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ محمد المدلسي وهو في سن الثالثة عشر، وبعدها أمّ المصلين في صلاة التراويح ثلاث سنوات متتالية، تعلم العلوم الدينية واللغوية على الأستاذ القدير الشيخ حمدان لونيبي (ت 1920م) وبعد أن لقي الشيخ حمدان لونيبي مضايقات كثيرة من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي اضطر إلى السفر إلى الحجاز وكان ذلك سنة 1908م وقد أوصى أباه بأن يبعث ابنه عبد الحميد في رحلة علمية إلى جامع الزيتونة المعمور لإتمام دراسته لأنه وجد فيه مواصفات الطالب الناجح الذكي النبيه وقد استجاب أبوه لوصية أستاذه فبعثه إلى جامع الزيتونة المبارك في جانفي 1910م.

خضع ابن باديس لامتحان القبول الذي كانت تجريه جامعة الزيتونة على الطلبة الوافدين إليها من دول أخرى وقد تفاجأت اللجنة المشرفة على الامتحان بمستواه وبفطنته وبسعة معارفه، تم قبوله وتسجيله، فدرس في جامع الزيتونة المعمور حتى تحصل على شهادة التطويق بعد سنة ونصف من الدراسة (جوان 1911م)، وبعدها بسنتين أنجز ما يعادل شهادة العالمية أو يفوقها، وبذلك يصبح مجموع السنوات التي قضاها ابن باديس

² - عبد العزيز فيلاي وأحمد صاري والطاهر بونلني : البيت الباديبي مسيرة علم ودين وسياسة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2012، ص31.

في جامع الزيتونة في تونس ثلاث سنوات ونصف أي من جانفي 1910م إلى شهر جويلية 1913م. عاد إلى قسنطينة منتصف سنة 1913م حاملاً رسالة ثقيلة في وجدانه تجاه وطنه الذي عاث فيه الاستعمار الفرنسي فساداً وتخريباً، وتجاه دينه الذي أصبح يحتضر بين أهله حيث التنصير من جهة والطرقية بضلالاتها وبدعها وشركياتها من جهة أخرى غير أنه شعر بالمسؤولية وتحملها، فبدأ بتطبيق مشروعه الذي يتخذ من التربية والتعليم كمنطلق للنهضة والتحرر من قيود الاستعمار فجعل من الإصلاح أحد أولوياته. هاجر إلى الحجاز عام 1920م وأثناء عودته منها زار العديد من الأقطار العربية فكانت البداية بالشام فزار سوريا ثم لبنان وبعدها شدّ الرحال إلى بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين عاد إلى قسنطينة سنة 1914م، بعد هذه الرحلة التي دامت ستة أشهر، والتي استفاد منها كثيراً، حيث اتضحت لديه معالم مشروعه الإصلاحية الذي ينطلق من التربية كأساس للإصلاح.

ظل الشيخ ابن باديس يناضل ويكافح على مختلف الأصعدة من أجل تحرير الوطن من قبضة المستعمر، وتحقيق النهضة والإصلاح المنشود حتى وافته المنية يوم الثلاثاء 08 ربيع الأول 1359هـ، الموافق ل: 16 أبريل 1940م في مسقط رأسه، ويعتبر هذا التاريخ أي (16 أبريل) عند الجزائريين يوم للعلم، وقد ترك لنا ميراثاً فكرياً وثقافياً متنوعاً يعبر عن نبوغه وعبقريته، ومن بين آثاره:¹

¹ – ابن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ج01، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم، ط1، 2009 ص39.

- تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.
- من هدي النبوة أو مجالس التذكير من كلام البشير النذير صلّ الله عليه وسلّم.
- رجال السلف ونسأؤه.
- القصص الهادف.
- العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .
- مبادئ الأصول.
- رسالة جواب سؤال عن سوء مقال.
- العواصم من القواسم لأبي بكر بن العربي المالكي : تحقيق وتقديم.

- تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي.

- التأفين لمنكر التأبين.

كما جُمعت مقالاته في الشهاب والبصائر وغيرهما .

2- مقومات مشروع ابن باديس الإصلاح.

يقوم مشروع ابن باديس الإصلاحي على مقومات ثلاثة هي: الدين الإسلامي، اللغة العربية، الوطن الجزائري، وهي التي أراد من خلالها إصلاح الواقع الجزائري المتخلف تحت قبضة الاستعمار الفرنسي، كما أنها تمثل مرجعيات الشخصية الجزائرية. وعلى هذا الأساس صاغ ابن باديس شعاره المعروف-الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا- أ- الدين الإسلامي.

وهو الدين الذي أمر الله تعالى عباده بأن يدينوا به متمثلاً في مصدره الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما ينبثق منهما من عقيدة صحيحة، وسنة مطهرة، وسيرة نبوية عطرة يعتبر مقوم أساسي ورئيسي من مقومات

المشروع الإصلاحى عند الشيخ عبد الحميد بن باديس باعتباره المرجع الأساس فى نظره وهو منطلق كل تقدم وإصلاح منشود، ويتأكد هذا الكلام فى مقولة ابن باديس الشهيرة: " نهضتنا نهضة بنينا على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية لا يخشاها والله النصرانى لنصرانيته ولا اليهودى ليهوديته، بل ولا المجوسى لمجوسيته، ولكن يجب والله أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله، والخائن لخيانته، نهضة بنيناها على العروبة والإسلام والعلم والفضيلة"¹.

لذلك، نجد أن ابن باديس يولى أهمية بالغة للدين الإسلامى. فقد سخر له حياته لتعلمه وتعليمه ونشر مبادئه والدفاع عنه، فكانت البداية بتفسير القرآن الكريم بالجامع الأخضر فى قسنطينة، حيث جعل من دراسته وتدريسه أساس دعوته ومحور انطلاقته فى التغيير والبناء والتجديد والإصلاح³.

فالتمسك بالدين الإسلامى يملأ الفراغ الروحى للفرد، ويمدّ الإنسان بطاقة روحية هائلة تجعل للإنسان إرادة قوية وعقلاً متفتحاً يقظاً يفكر ويتأمل فى مخلوقات الله تعالى فيكتشف أسرار وخبائى الكون والطبيعة مجسداً قوله تعالى: (إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار)⁴.

1- ابن باديس: الشهاب، ج 8/م 13، ص 358.

3- محمد الدراجى: الإمام عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد، دار قرطبة، ط1، 2007، ص 64.

4- القرآن الكريم: سورة آل عمران، الآيات من 190 إلى 191.

يعمل الإنسان على تحويل هذه الطاقة الروحية إلى مشاريع عملية نافعة، فيها خير وافر للعباد، يعمل للدنيا والآخرة معاً، تنتظم أمور الحياة يدرك الفرد واجباته يقوم بها ويعرف حقوقه يحرص على تحقيقها كل ذلك وفق رؤية واضحة ومنهج سليم. إن الدين الإسلامي أم المرجعيات كلها عند ابن باديس، فهو مصدر القوة لشعب أعزل في مواجهة عدوه وتحت عنوان: "مبدؤنا السياسي"، كتب يقول: "نحن قوم مسلمون جزائريون، في نطاق الجمهورية الفرنسية، فلأننا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال انساني، ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر، وفي المحافظة على هذه التقاليد المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا، لأننا نعلم أنه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين، وأن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها"⁵

كان ابن باديس مدركاً لأهمية الدين. لذلك يقول عنه: "إن الدين كشرعية وسلوك ونظام محكم، نعمل به في حياتنا، وقوة معنوية نلتجئ إليها في تهذيب أخلاقنا وقتل روح الإغارة والفساد منا، واماتة الجرائم من بيننا، فلهذا لا نألو جهداً في خدمته بنشر مبادئه الحقة العالية..."².

⁵ - عمار طالبي: ابن باديس حياته وأثاره ج3، الشركة الجزائرية، ط3، 1997، ص277.

² - نفسه: ص278.

³ - علي بن محمد: مرجعيات الهوية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس، جريدة الشروق اليومي، 2012/05/21م، العدد3661، ص 15 .

وإيماناً منه بدور الدين ومكانته تفرغ ابن باديس لتعليم أبناء الجزائريين أمور دينهم من عقيدة وفقه وأصول وسيرة نبوية في المساجد والمدارس والكتاتيب، وفي مختلف الحلقات العلمية للكبار والصغار، للذكور والإناث، مجدداً العهد مع العقيدة الإسلامية الصحيحة عقيدة السلف الصالح لاتحريف ولاإبطال و لاتعطيل محارباً البدع والخرافات ومختلف الضلالات في العقيدة التي كانت شائعة، والتي كانت من صنيع بعض الطرق الصوفية. يقول الشيخ في مقال عنوانه – مبادئ دعوة جمعية العلماء – متحدثاً عن الظواهر الطرقية في الجزائر: "الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ، وأولاد الشيخ... إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال، ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم، وقتل للشعور، وغير ذلك من الضرر"¹

لقد آمن ابن باديس بقوة الدين الإسلامي وقدرته على صنع الأفراد رجالاً ونساءً كما فعل في الماضي مع الأجداد ، فقد أنتج رجالاً شجعان عظماء ، ونساءً عظيمات ، احتضنوا الدين وأحبوه فأحبهم الله ونصرهم وكانوا قادة بأخلاقهم وبتطورهم في مختلف العلوم والمعارف، فكانوا أسياد غيرهم، بنوا حضارة الإسلام في العراق والشام وقرطبة والمغرب والجزائر... الخ. يقول ابن باديس: "نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا الني ستحقق أن يُكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم،

وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلّق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها.⁶ ويمكن للفرد الجزائري إذا ما وعى هذا أن يرفع عن نفسه هذه الحالة من التراجع والتخلف والتردي ويتحرر من قبضة الاستعمار، فينهض من جديد لكن بالدين الصحيح كما ارتضاه الله لعباده، لا دين الطرق الصوفية التي لم تستقم على المنهج السليم. من أجل ذلك حارب كل المظاهر السلبية في الاعتقاد التي كانت تروّج لها الطرق الصوفية بحكمة وأدب، دون عنف أو تجريح ، وبالْحجج الدامغة والأدلة المقنعة. يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في مقال له نشره في مجلة الشهاب تحت عنوان لماذا حارب الشهاب الطرقية؟. قال : " حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها- علم الله - من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب وقد بلغنا غايتنا والحمد لله "

والغريب في الأمر أن هناك أفكاراً غريبة كانت شائعة بين الجزائريين أوجدها الاستعمار وساهم الطرقيون في انتشارها ، فأفشلت الفرد الجزائري، وأصبح ينظر إلى الأمور من زاوية ضيقة مظلمة لا يرى الحقيقة. ومن بين الأفكار التي كانت منتشرة - اعتقد ولا تنتقد- ،- نأكل القوت ونستنى الموت -، وقد أدت هذه الظواهر الاجتماعية الخطيرة إلى فساد العقيدة، وانحراف الأخلاق، فأصاب الفرد الجزائري الشلل والجمود في الفكر والشعور، فغابت أفق المستقبل، وأصبح ينظر إلى الدنيا على أنها لاشيء لانعمل ولانفكر ولانسعى في حياتنا

1- ابن باديس : الشهاب ج4-5/م، ص 291 .

مادام الموت آت، فالاستعمار قضاء وقدر، والفرنسي سيد وأنا عبد قضاء وقدر كذلك وهكذا الأمر.

إن هذا الانحراف واجهه ابن باديس مبيناً الحق من الباطل، داعياً في الوقت نفسه شيوخ الزوايا أن ينتهوا عن هذا ويبيّنوا الحق وينصروه، مثلما فعل مع شيخ الزاوية العلوية بمستغانم أحمد بن عليوة (ت1934م) في رسالته - جواب سؤال عن سوء مقال - بسبب إنحرافاته وسوء أدبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم.⁷

لقد انشرت الأفكار السلبية والاعتقادات الفاسدة فتعطلت الروح الفاعلة، وصدأت الهمة، ونالها الكلل، لذلك صوّب ابن باديس أفكاره نحو الروح وعملوا بلا هواده على ترميمها لكي تعود إلى ماكانت عليه في سالف عهدها نقية طاهرة وفعالة. لقد ركّز ابن باديس على إصلاح العقيدة وذلك بتنقيتها مما لحق بها من بدع وخرافات وشركيات والدعوة إلى العقيدة التي تحيا في النفوس وتجعلها تؤمن أنها كائنات خلقت للحياة الكريمة المفضية إلى الحياة المخلّدة أي يفهم الفرد العلاقة بين الدنيا والآخرة حيث يستثمر في الدنيا أحسن استثمار فيجعلها طريقاً آمناً يؤدي به إلى الفوز في الدار الآخرة، كما يرى ابن باديس أن الإسلام نوعان إسلام وراثي وإسلام ذاتي، فالإسلام الوراثي هو الذي يتوارثه الأفراد عن آبائهم وأجدادهم دون أن يعرفوا معانيه ومدلولاته، إسلام مبني على العاطفة، بلا تفكير ولا تأمل ولا شرح ولا تفسير لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، هذا الإسلام أهله كثر في المجتمعات العربية

7 - عمار طالبي : ابن باديس حياته وآثاره ج1، الشركة الجزائرية، ط3، 1997،

والإسلامية، هو إسلام مقبول لكنه لا ينهض بالأمم ولا يبني حضارة ولا يشيّد عمراناً، ونتيجة جهلهم يدخلون فيه بدعاً وخرافات واعتقادات فاسدة يأبأها الإسلام في أصوله ومنابعه، فيضّر بجوهر العقيدة، فالإسلام الوراثي هو ما بني على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر، يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الأباء، ومحبة أهله للإسلام إنما هي محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان.¹

إن الإسلام الوراثي التقليدي بالرغم من أن ابن باديس يعترف ببعض فضائله إلا أنه لا يحبّه لأنه لا يساعد على التقدم والتطور والنهوض بالأفراد والمجتمعات، أما الإسلام الذاتي فهو الإسلام المبني على التفكير والتحليل، والنظر والتأمل، نابع الإعتقاد به من العقل، لا يعتقد فيه المرء إلا بدليل يركّز على البراهين والحجج العقلية أفراده يتدبرونه ويتخذونه طريقاً يسرون عليه في حياتهم فيفلحون في الدنيا والآخرة .

إن الإسلام الذاتي هو الإسلام الذي جاء به القرآن الكريم وأمرنا أن نقيمه على الفكر " قل إنّما أعظمكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا "²

إن الأمم في نظر ابن باديس لاتنهض إلا بالتفكير في الطبيعة وفي آيات الله، ولاتتقدم إلا ببناء أعمالها وأحكامها وأقوالها على الفكر، وذلك وحده هو سبيل الحضارة والعمران واستغلال الكون.⁸

1- ابن باديس : الشهاب، ج 3/م 14، ص 120.

2- القرآن الكريم : سورة سبأ، الآية 46 .

8 - محمد بهي الدين سالم : ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، ط 1، 1999، ص 123.

من هنا جاء تأكيد ابن باديس على أن الإسلام الحقيقي في نظره هو الإسلام الذاتي الذي أصله القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأن السبيل الوحيد للتوصل إليه ومعرفة هو سبيل التعليم لأن المسلم لا يكون مسلماً حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون أفراداً وجماعات مسؤولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات، للرجال والنساء، كل بما استطاع والقليل من ذلك خيره كثير⁹.

فالدين الإسلامي ركيزة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها في المشروع الإصلاحى عند ابن باديس، وهذا ما نلمسه في مختلف البرامج التي كان يدرسها لطلبته، لأن التربية في نظره موجهة للإنسان وأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون دين، فالإنسان كائن ديني لذلك رفع صوته مرة قائلًا: " لعنة الله على الدنيا كلها إذا لم يكن فيها دين"¹⁰

ب- اللغة العربية .

إن الحديث عن الدين كمقوم رئيسي وركيزة أساسية في المشروع الإصلاحى عند الشيخ عبد الحميد بن باديس يقودنا إلى الحديث عن اللغة كمقوم محوري لا يمكن تجاهله أو القفز عليه فاللغة هي لسان الفرد والناطق الرسمي باسمه، باعتبار أن الفرد يعرف بلغته وحتى أفكاره وأرائه تعرف إنطلاقاً من كلامه أي لغته، فاللغة ثابت من ثوابت الأمة بها تحافظ على وجودها وتضمن استمراريتها، فاللغة هي الوطن وهي الجنسية

⁹ مرجع سابق : ابن باديس حياته وآثاره ج1، ص242.

¹⁰ - الطاهر فضلاء قال الشيخ الرئيس : عن عشراتي سليمان : ابن باديس التحول من برزخية القول إلى حضور الفعل ملاسة لفقه سياسة الإصلاح وإصلاح

السياسة ج02، ص266

وتتمثل في الآداب العربية وفروعه والحكم والأمثال والشعر والنثر والنحو والصرف والبلاغة والبيان والإنشاء.¹¹ إن اللغة وسيلة اتصال وتواصل بين الأفراد والمجتمعات، إذ بها يعبر الإنسان عن أماله وأحلامه وحتى آلامه، لذلك يعرفها عبد القادر الجرجاني: " اللغة هي ما يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹² وإيماناً بدور اللغة وقيمتها فقد أولى لها ابن باديس مكانة خاصة في مشروعه الإصلاحية والتربوية، ونقصد باللغة العربية لغة القرآن الكريم إذ لا يمكن الحفاظ على الدين إلا بالحفاظ على اللغة العربية، ولتستقيم الأحوال إلا بتعلمها والتمكن منها، فحفظها هو حفظ للأمة، والمساس بها هو مساس بالأمة. فاللغة العربية في نظر ابن باديس ليست حكرًا على العرب، وإنما كل من يتكلم العربية يعتبر عربياً حتى وإن لم ينحدر من سلالة العرب، باعتبار أن الدين الإسلامي لم يأت للعرب وحدهم ، وبالتالي فإن من يدين الإسلام يفترض منه أن يتكلم العربية، فتنمو بذلك الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها ويهتدون مثلها بهدي الإسلام وقد اتضح ذلك في حديث رواه ابن عساكر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهري عن أبي سلمة ابن عبد الرحمان قال: " جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فما بال هذا، يعني الفارسي والرومي والحبشي، ما يدعوهم إلى نصره

11 - أحمد الرفاعي شرفي: مقالات الاسلاميين في الأدب والنقد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط1، 2009م، ص228.

12 - الجرجاني: كتاب التعريفات، دار النفيس، ط2، 2007، ص272 .

وهم ليسوا عرباً مثل قومه، فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه فأخذ بتلبيسه على مانحره من الثياب، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه لما أعجله من الغضب حتى أتى المسجد ثم نادى - الصلاة جامعة - ليجتمع الناس فقال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس الرب واحد، والأب واحد، والدين واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي، فقام معاذ وقال : فما تأمرني بهذا المنافق يارسول الله ؟ قال: دعه إلى النار، فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل"¹³

من خلال هذا الحديث الشريف، يتبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع قاعدة متينة مفادها أن القومية العربية ينضوي تحتها كل من يتكلم العربية، وهدفه من ذلك جمع الشمل باللسان الواحد حتى وإن اختلف الدم والجسم لتنمو وتتطور اللغة العربية وتنتشر.

لقد تأثر ابن باديس بهذا الحديث شارحاً إياه موضحاً مدلوله مبيناً أن الرسول صلى الله عليه وسلم رجل القومية العربية الأول لأنه ناضل وجاهد من أجل هذه اللغة معتبراً إياها أداة إيجابية في خدمة إجتماع البشر وتعاونهم، وهذا ما اعترف به حتى غير العرب أمثال غوستاف لوبون(ت1931م) في قوله: "لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب، لأنهم فتحوا فتح هداية لافتتح استعمار وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد"¹⁴ فالعربية باعتبارها لغة القرآن الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء

¹³ عمار طالبي : ابن باديس حياته وأثاره ج4، الشركة الجزائرية، ط3، 1997، ص19 .

¹⁴ - المرجع السابق: ص21.

ليست للعرب فقط دون غيرهم وإنما هي لغة البشر جميعهم عربهم وعجمهم وهذا ما آمن به ابن باديس وكرس حياته لتجسيده فاللغة العربية بالنسبة إليه مرجع رئيسي من مرجعيات الهوية الجزائرية، العلاقة وطيدة بينها وبين الدين لأن القرآن الكريم جاء بالعربية، وأن نبي الأمة نشر رسالته بالعربية، فهي اللغة التي أقرّها وارتضاها الله لعباده لكن مع احترام بقية اللغات واللهجات الأخرى فابن باديس كان يؤمن بالدور الفعال للغة، فاللغة الواحدة تجعل المتكلمين بها متحدّين كتلة واحدة فهي توحدّ اللسان وتقربّ العقول وتجمع النفوس على الخير لذلك يقول: " تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحدّ شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد¹⁵ "، ويضرب لنا ابن باديس مثلاً رائعاً على ذلك ويقول: " لو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم¹⁶"

ولأن اللغة ضرورية وهي أحد الجوانب المهمة للهوية الجزائرية فقد عمل الاستعمار بكل جهد من أجل تدينسها وتخريبها وإضعافها، وإحلال محلها اللغة الفرنسية، ومن أجل

15 - نفسه: ص 20.

16 - المرجع السابق: ص 20.

ذلك، غلق المدارس والكتاتيب التي تدرّس باللغة العربية وألزمها على التعليم باللغة الفرنسية وشجّع على تعلم الفرنسية كبديل عن العربية، فجعل التعامل الإداري في مختلف الدوائر والعملات باللغة الفرنسية فأصبحت كل الإدارات تتعامل باللغة الفرنسية وتفرض ذلك على الجزائريين، فكتابة العقود كالبيع والشراء والزواج يتم بالفرنسية وإلا ترفض، ووصل الأمر إلى القضاء، فكثيراً ماذهب حقوق الجزائريين هباءً نتيجة عدم اتقانهم الفرنسية. أما المعمرون فكانوا يتكلمون باللغة الفرنسية مع الجزائريين ووصل الأمر بهم إلى سبهم وشتيمهم والمساس بكرامتهم خاصة في المعامل والمزارع وذلك كله باللغة الفرنسية، بل إن سياسة التجهيل التي اعتمدها الحكومة الاستعمارية ضد الجزائريين وجّه آخر من أوجه الفرنسية، فشجّعت على انتشار اللغة الدارجة والمزوجة بالفرنسية حتى تقضي على اللغة العربية تدريجياً .

وبعد أن شرعت فرنسا في تعليم أبناء الجزائريين كانت كل المناهج التعليمية باللغة الفرنسية، إلا بعض الحصص التي كانت باللغة العربية الدارجة والرديئة، وكان هدفها من وراء ذلك فرنسة الشعب الجزائري فكراً ولغة وسلوكاً، ومحاربة اللغة العربية وتضييق الخناق عليها بين أهلها، وإحلال اللغة الفرنسية محلها. ولم يكن همها في ذلك تعليم الجزائريين الفرنسية لينتفعوا بها وإنما لتوطيدها في عقولهم ونفوسهم وألسنتهم ليسهل إلحاقهم بفرنسا الدولة الأم في نظرها. وقد تجلّى تأثير ذلك على النخبة المثقفة التي أنتجت المدرسة الفرنسية في الجزائر نخبة فرانكفونية لا تعرف اللغة العربية التي هي اللغة الأصلية للجزائريين قروناً عديدة، فقد قال أحد

خريجي المدارس الفرنسية أنه: "عندما يتكلم الجزائريون لغتنا (اللغة الفرنسية) يصبحون نصف فرنسيين"¹⁷

إنّ هذه الحملة الشرسة والعدوانية التي قادتها الحكومة الإستعمارية ضدّ أهم مقوم من مقومات الشخصية الجزائرية وهي اللغة العربية وتأثيرها السلبي على الجزائريين، أنشأت فئة الإندماجيين التي تطالب بالإندماج في فرنسا محتقرة بذلك اللغة العربية والهوية الإسلامية للفرد الجزائري، كل ذلك جعل ابن باديس يركّز اهتمامه على اللغة العربية، ويلفت انتباهه إليها مصرّحاً أن اللغة الأم في هذا الوطن الأبوي هي اللغة العربية، فقد كانت ولا زالت وستبقى هي الأصل، لغة الإيمان والإسلام، لغة لجميع الجزائريين عربهم وبربرهم، وأن هذه الإشاعات الفرنسية لأساس لها ولا تستند إلى أي حقيقة .

فقد واجه الشيخ ابن باديس هذه الأوضاع المتردية والحملة الشرسة على اللغة العربية فوضع بذلك وبمعية زملائه مشروعاً إصلاحياً متكاملماً قائماً على أهداف واضحة بيّنة المعالم، وهي نشر اللغة العربية على نطاق واسع بتعليمها وتعلمها والتشجيع على انتشارها، وإحيائها في النفوس والعقول وعلى الألسن ليعود الفرد الجزائري إلى رشده ويعتز بلغته مواجهاً بذلك اللغة الفرنسية التي حاولت فرنسا فرضها بالقوة كما سبق وأن ذكرنا .

إن المشروع الإصلاحي عند ابن باديس يقوم على اللغة وجعلها الركيزة الثانية بعد الدين فهما أي اللغة والدين متكاملان منسجمان. فاللغة العربية يجب أن تبقى حية لأنها

17 - عبد القادر حلوش : سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر ، دار الأمة ، دون طبعة ، دون سنة ص63 .

وجدان الفرد الجزائري، إذ عندما يتعلمها ويتقنها تمكنه من فهم القرآن الكريم والكشف عن مكوناته فينهض العقل وتعلو الإرادة وتحيا النفوس وتتبعث أفق التحرر والتقدم. كما أنّ بناء مشروع إصلاح على اللغة يجعله في خدمة أهداف الوطن والأمة والاجتماع البشري باعتبار اللغة وسيلة للشمول وجمع الكلمة. لذلك نجد العديد من الدول تفرق أفرادها وانفصلت قبائلها بسبب اختلاف اللغة، فاللغة يعرب بها الإنسان ويتأدب بأدابها، فاستقلال اللغة مظهر من مظاهر استقلال الأمة .

الوطن الجزائري.

وهو القطر الجزائري بكل مكوناته، حيث يعتبر أحد المرجعيات الأساسية في تعريف الفرد الجزائري فالوطن هو الحياة بالنسبة للفرد، فهو بأرضه وبحره وهوائه ومختلف مكوناته. ولايستطيع أي إنسان أن يعيش بلا وطن، على اعتبار أن الوطن هو الأم التي تلد وتربي وترعى دون كلل أو ملل. فالفرد ابن بيئته ومحيطه ومجتمعه عند علماء الاجتماع كما أنه ابن وطنه منه وجد وإليه يعمل وعليه يعيش في أمن وسلام باحثاً عن مصلحة وطنه، يقول ابن خلدون: " الإنسان مدني بالطبع"¹

فلا عزة للفرد ولاشرف له إلا بعزة وطنه وشرفه، منه تستمد الوطنية، والقومية يفضل المرء الموت على أن يضيع وطنه،

¹- ابن خلدون: المقدمة، دار الغد الجديد، ط1، 2007، ص53. - نفس هذا القول عبّر عنه علماء الاجتماع بعد ابن خلدون حين قالوا: " الإنسان كائن اجتماعي بطبعه "

فلاشرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لأهله عند ابن باديس، ويؤكد هذا الكلام كله عند تفسيره للآية 18 من سورة النمل قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمتكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾. إنّما يُستفاد من هذه الآية أنه لا حياة للشخص إلاّ بحياة قومه، ولانجاة له إلاّ بنجاتهم وأن لاخير لهم فيه إلاّ إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.¹⁸

والحديث عن الوطن عند ابن باديس هو حديث عن الجزائر، هذه البلاد العربية الإسلامية أباً عن جد، الأرض الطيبة التي أنجبت الأبطال والعظماء على مرّ التاريخ. لذلك نجد ابن باديس يفتخر بعروبته ووطنيته، وهذا ماتجسّد جلياً في مواقفه التي تعبّر عن وطنية خالصة خالية من المصالح المادية والأطماع السياسية. ومن أمثلة ذلك لما اقترح عليه أستاذه حمدان لونيّسي الإقامة في الحجاز وعدم العودة إلى الوطن رفض وفضّل الإقامة في وطنه ليخدمه ويخدم أهله بالرغم من المخاطر المحيطة التي كانت تحاك ضد العلماء والمصلحين في الجزائر من السلطات الاستعمارية آنذاك لكن حبه لوطنه وخوفه عليه في هذه الأوقات الصعبة هي التي جعلته يعود ويمكث في وطنه يخدمه حتى يستشهد فقد سئل مرة لمن تعيش؟ فأجاب بصدق وصراحة - أعيش للإسلام والجزائر. هكذا أجاب ابن باديس. والمتتبع كذلك لجميع خطابات ابن

18 - ابن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير م02، دار الرشيد للكتاب

والقرآن الكريم، ط1، 2009، ص217.

باديس كانت فاتحتها ذكر الوطن فكان يقول: بسم الله بسم الحق والوطن، ويبتديء كلامه. وقد جعل ابن باديس لجريدة "المنتقد" شعاراً يعبر عن وطنية الرجل الصادقة وسعيه الحثيث لخدمة وطنه وأهله والتخطيط لهضته وتحرره فجاء شعارها - " الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء " يقول : الشعب الجزائر روعي الفدا
عربية

بنيت على الدين أركانها
فكانت سلاماً على
البشرية¹⁹

بهذا يتبين الإهتمام الخاص الذي أولاه ابن باديس للوطن الجزائري مقدساً إياه رافعاً من شأنه وقيمته، معتبراً أن الوحدة الوطنية غاية ووسيلة أيضاً للمحافظة على الجزائر، لذلك يقول: " كلمة الوطن إذا رنت في الأذان حركت أوتار القلوب، وهزت النفوس هزاً.²⁰ ويقول أيضاً: " إن وطننا الجزائر واسع الأطراف، متعدد المناطق والبيئات حتى كاد يستقل بعضها عن بعض فوجب علينا أن نربط بين حاضرتنا وباديتنا بما لدينا من وسائل الإتصال حتى نقرب بينها تقريباً يجعل المواطنين يتعارفون كأبناء وطن واحد وإن من جملة الوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الهدف في مطلع نهضتنا العلمية، هذه الحلقات التي استطاعت بفضل الله أن تجمعهم من عدة جهات، لافرق ولافضل لأي منهم على الآخر إلا بالإجتهد والعمل " .

إن حب ابن باديس لوطنه وغيرته عليه هو الذي دفع به إلى النضال من أجله ومن أجل سعادة أهله، فكثيراً ما كان يقرّ بأن

¹⁹ ابن باديس : الشهاب، ج04/ م13، ص 317 .

²⁰ ابن باديس : الشهاب، ج01/ م14، ص 03 .

هناك علاقة خاصة بينه وبين هذا الوطن الغالي الجزائر، وغالباً ما كان ابن باديس يبيّن مدى احترامه لأبناء وطنه. لذلك نجد أن من بين العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته كما سبق وأن ذكرنا، الشعب الجزائري المعروف بغيرته على أهله ووطنه لما في أهله من المروءة والشجاعة والكرم والصفات الأخلاقية النبيلة. لذلك نجده وفي تواضع ينسب أعماله للوطن. إنه ابن باديس الذي عرف حقيقة الوطن والوطنية ومارسها في الواقع فجعلت منه رجلاً عظيماً بين أبناء وطنه.

إن الوطن الأول عند ابن باديس الجزائر وهي وطنه الخاص، وهي عنده ليست إقليمياً جغرافياً فحسب، ولكنه كيان حي من البشر الذين يعيشون فيه وتؤلف بينهم روابط الدين واللغة والتاريخ، وأن المواطن الصحيح فيه من تربطه بوطنه أو اصر وذكريات وأمال، وينجم عن هذا الارتباط تكاليفه وواجباته .

لكن وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً منا على بال، يقول ابن باديس: " ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص، نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النفع والخير، عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص "21

يعتقد ابن باديس أن حب الوطن من الإيمان فقد حاول شرحها موضعاً معناها ودلالاتها، فهي كلمة تجري دائماً على السنة المسلمين، لأن معناها صحيح ثابت في الإسلام، من الإيمان أن تحب من أحسن إليك، ومن أحسن إليك مثل وطنك؟ منه تغذى أبوك وأمك، فتكون الدم الذي كنت منه نطفة فعلة فمضغة ثم خلقاً آخر ثم تغذيت من دمها ومن لبنها ثم تغذيت منه أنت

²¹ عبد القادر فضيل ، محمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، دون طبعة ، 2012 ، ص 102 .

الآخر. فهو بترابه ومائه وهوائه ونباته وحيوانه أصل تكوينك ومادة غذائك ومسرح طفولتك وشبابك، فكيف تكون مؤمناً إذا لم تحب هذا المحسن العظيم²² ؟

هكذا فهم ابن باديس معنى الوطنية وعمل جاهداً من أجل نقلها لتلاميذته وأصحابه وترسيخها فيهم ليكونوا رجالاً ليسوا أبناء آبائهم وأمهاتهم فقط، وإنما أبناء وطنهم بالدرجة الأولى، يخدمونه بصدق وجهد حتى وإن أنكر أبناؤه فضلهم ومساهماتهم. ومما يلاحظ أنه ربط بين حب الوطن والإيمان أي بين الوطن والدين، بين الوطنية والعقيدة. إن هذا الفهم الصحيح لمعنى الوطن جعلت من ابن باديس يرفض كل مساومة على الوطن مهما كان ثمنها ولو أعطوه الدنيا وما فيها

والوطن في مفهوم ابن باديس أنواع. فالمعنى الأول للوطن هو البيت أو الأسرة التي يولد فيها الفرد ويتربص ويتلقى كل أنواع التربية. وهناك الوطن الذي يعيش فيه الفرد ماضيه وحاضره ومستقبله، تجمع بين أفراده علاقات حميمة كونهم يماثلونه اللسان والمشاعر والتقاليد يقول ابن باديس: " أحب وطنك ولا تبغض أوطان الناس، انفع وطنك ولا تضر أوطاناً أخرى. بل اجتهد لأن تكون مصدر محبة شاملة ونفع عام"²³ ولأن ابن باديس كان مهموماً بوطنه الذي تقنن الاستعمار في القضاء عليه وعلى مقوماته فإنه آمن به وناضل من أجله. وأولى له مكانة خاصة واعتبره مرجعاً رئيسياً في مشروعه

22 - ابن باديس : الشهاب، ج 3/م 14، ص 122 .

23 - مرجع سابق : عبد القادر فضيل ، محمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد

الحميد ابن باديس، ص 103 .

الإصلاحي. لذلك نجد كل المناهج التربوية التي كانت تدرّس في المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت تحمل فكرة الوطن لمواجهة سياسات المستعمر من جهة، وتجسيد فكرة الوطنية في نفوس الناشئة من جهة أخرى، فكان مثلاً يدرّسهم الأناشيد الوطنية التي فيها فخر واعتزاز بهذا الوطن وكانت برامج التاريخ والجغرافيا والأدب تحمل هذه الدلالات، فعندما يتحدث عن البحر الأبيض المتوسط يقول هو البحر الذي يفصل فرنسا عن الجزائر، وعندما يذكر الفاعل فهو مرفوع لذلك على الإنسان أن يكون منتجاً مبدعاً فاعلاً وأن المفعول به منصوب أي موضوع فلا تكن مفعولاً به... الخ. ومن بين الكتب التي كانت مدرجة في مادتي التاريخ والجغرافيا كتاب تاريخ الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدني أو الشيخ محمد مبارك الملي، كتاب جغرافية القطر الجزائري لأحمد توفيق المدني كذلك الذي يتحدث بوضوح تام وصادق عن جغرافيا الجزائر دون تزييف أو تحريف، كتاب مختصرات من التاريخ الإسلامي للخياط ومن تاريخ الجزائر، كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث للشيخ محمد مبارك الملي... الخ. ومن أمثلة ما كان يستخدم لتثبيت فكرة الوطنية في نفوس المتعلمين الشعر العربي، وهذه أبيات كانت تدرّس للطلبة في مادة اللغة العربية :

أنا لأهوى سواك	يا بلادي يا بلادي
مشرق فوق السماء	لك في التاريخ ركن
	وهناك أيضاً :
أهل عزم وثبات	نحن أبناء الجزائر

نحن بالنفس نفدي كل جزء من ثراك¹ وفعلاً، أصاب الرجل، عاش في الجزائر وجاهد من أجل الجزائر وهويتها معلماً ومربيّاً وإماماً ناصحاً، حتى مات على أرض الجزائر، وفي سبيلها، حتى تبقى للأجيال، لأدين فيها غير الإسلام واللغة إلا اللغة العربية، ولاقومية إلا القومية العربية الإسلامية دون تعصب أو تمذهب .

3- دور التربية والتعليم في هذا المشروع الإصلاحي.

إن الإسلام من خلال نصوصه (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة) يدعو إلى كل فضيلة وينهى عن كل رذيلة فالعلم مقدّس في الإسلام تعلّماً وتعليماً حيث ركزت الحركات الإصلاحية التي ظهرت في الوطن العربي على التربية و التعليم من أجل تبليغ رسالتها والوصول إلى أهدافها خاصة المصلحين المحافظين، ومادام ابن باديس ينتمي إلى ذلك الرعيل الأول من العلماء الربانيين، فإن إهتمامه بالتربية لم يكن وليد صدفة وإنما اختار التربية والتعليم عن قصد لأنه كان يدرك أن التحرر من قبضة المستعمر، وتحقيق النهضة والتقدم يتحققان بالتربية الصحيحة لأن بفضلها يمكن أن نكوّن رجالاً ونساءً هم من ينهضون بالأمة ويحررونها من الاستعمار، وفعلاً كان له ماأراد، لذلك كان الشيخ ابن باديس يشجّع السكان على التبرع بالأموال لفتح المدارس الحرة في أنحاء الجزائر، فكثر تلاميذه وأرسل البعض منهم إلى جامع الزيتونة المبارك، وبعد عشر سنوات من التدريس أثمرت جهوده في تكوين شباب متشبع بقيم الحضارة الإسلامية ساعده في نشر الوعي

¹ - منهاج التعليم لمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 27 .

الديني والإجتماعي وفي تحرير البلاد الذي لا يأتي إلا بالعمل على بعث مقومات الشخصية الجزائرية.²⁴ وبالعودة إلى شخصية ابن باديس نجد بأنه تأثر بأساتذته وبالعلماء الذين التقاهم سواء في جامع الزيتونة المبارك أو في جامع الأزهر الشريف أو حتى في مسجد المدينة المنورة، حيث كانت هذه الأماكن منارات للعلم والمعرفة يتعلم فيها المسلمون أمور دينهم ودنياهم جعلته يتوصل إلى قناعة مفادها أن الفساد الذي حصل لا يستقيم إلا بالتربية الصحيحة القائمة على أسس متينة واضحة. فالاهتمام بالتربية والتعليم في المشرق والمغرب والتركيز عليهما كمنطلق للتحرر والتقدم هو الدافع الذي دفع ابن باديس وجعله يعتمد على التربية والتعليم في منهجه الإصلاحية.

فقد أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (31ماي 1931م) التي تعتبر الإطار القانوني الذي وُحّد جهود العلماء ولمّ شملهم وجمع كلمتهم، كما وُحّد أهدافهم وخطتهم تحت الشعار الذي أشرنا إليه سابقاً: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. لذلك فدور هذه الجمعية كبير جداً لا يمكن لأحد أن ينكره خاصة في مجال التربية والتعليم، فقد استطاعت في ظرف قصير نسبياً أن تصبح منظمة جماهيرية لها أتباع وأنصار في كل جزء من الوطن، ولها شعب ومدارس ومساجد حرة ومعلمون في كل قرية ومدينة. كما استطاعت أن توحد البلاد فكرياً وروحياً بعد أن مزقتها الاستعمار شرّ تمزيق. ولعل الجمعية كانت أول المنظمات التي

²⁴ - عمار عموره: الجزائر بوابة التاريخ الجزائر عامة ج 1، دار المعرفة، دون طبعة، 2009، ص 416-417.

كسرت الحدود الجهوية وذلك بتعيينها للمعلمين خارج مناطقهم الأصلية وتوجيه من كان منهم في شرق البلاد إلى غربها وهذا هو الذي طبّق عند قادة الثورة.¹

فقد كان لها مدارس وكتاتيب ونوادي وجمعيات وشعب في مختلف ربوع الوطن كما سبق وأن ذكرنا، لقد شكلت بمفردها وطناً آخر هو الوطن الحقيقي الذي يجب أن ينتسب إليه أبناء الجزائر لا الوطن كما صورته فرنسا وأتباعها. فقد عبّرت بصدق عن آمال الانسان الجزائري، وهنا يقول شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله رحمه الله تعالى: "إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اهتمت بالإنسان، فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها، خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك جمهور من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين ووفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب، فكانت جمعية العلماء من الناحية الفكرية على الأقل عبارة عن دولة داخل دولة، فكان العاملون فيها جنوداً في معركة وراءها إذا كسبوها والنصر والعزة للوطن والإسلام والعروبة".²

أما إذا تحدثنا عن الجمعية في مجال التربية والتعليم في المدارس فقد كان لها برامج تعليمية ومناهج تربوية تدرّس في مدارسها وهي موحّدة بين مختلف المناطق شرقاً وغرباً، شمالاً

1- مرجع سابق: مازن صلاح حامد مطبقاني : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1931-1939) ، عالم الأفكار، دون طبعة، 2011، ص 10 .

2- نفسه: ص 10 .

وجنوباً، أما النظام العام الذي يسيّر هذه المؤسسات التربوية فكان نظاماً عصرياً سبق أوانه بسنوات عدة يراعي ما كانت تدعو إليه التربية الحديثة فاهتمت بتعليم الكبار والصغار، الرجال والنساء، البنين والبنات، فكانت التربية بحق منطلق وأساس الحركة الإصلاحية الباديسية لأنه أمن بدور التربية والتعليم في تكوين الأجيال واعداد انسان المستقبل الانسان الايجابي المتوازن القادر على الخلق والإبداع وأول غاية لابد من تحقيقها هي التحرر من قيود المستعمر ومن ثمة بناء دولة جزائرية مزدهرة متطورة.

4- أصالة مشروع ابن باديس الإصلاحي.

إن المتأمل في المشروع الإصلاحي لابن باديس يتبين له جلياً أن ابن باديس بنى مشروعه على فلسفة واضحة الأسس والمعالم بيّنة الغايات، والأهداف، والمقاصد تستوعب المشكلات وتعبّر عن الآمال وتقدم الحلول فلاشك أن تطبيقاته على أرض الواقع جانباً آخر من التعدد والتنوع فمن العلم إلى العمل، ومن التربية إلى السياسة، ومن الثقافة إلى الاقتصاد. ولا نكاد نجانب الصواب إذا قلنا أن المشروع الإصلاحي عند الشيخ بن باديس كان يجمع بين العمل التربوي والرؤية السياسية، ويتضح هذا من خلال أمرين. الأول هو أن ابن باديس من خلال تعليمه وتربيته كان يهدف إلى غايات عدة من أهمها وأبرزها مواجهة وعرقلة مخططات المستعمر الفرنسي العدوانية التي كانت تستهدف الدين، واللغة، والوطن، وحتى القيم، والأخلاق الإسلامية للفرد الجزائري الذي جثم الاستعمار على صدره مانعاً إياه من تنفس هواء الحرية، حاكماً عليه بالجهل والتخلف .

والثاني هو أنه على الرغم من كون الشيخ بن باديس مربياً غير أنه عمل في الحقل السياسي، فهو صاحب فكر سياسي أصيل. فقد كان من الداعين لمؤتمر إسلامي يضم مختلف القوى الوطنية في الجزائر للتباحث حول مصير ومستقبل الوطن، يجمع الشمل، ويوحد الصف، ويوضح الهدف. ولقد حصل له ما أراد فعُقد المؤتمر يوم 07 جوان 1936م، وقاد مختلف جلساته مقدماً مطالبه للمؤتمرين مبيناً آراءه ومواقفه .

لقد ألحق ابن باديس التربية بالسياسة لأن هدفه من خلال مشروعه الإصلاحية نهضة الأمة الجزائرية وبناء الوطن الجزائري وفق مبادئ وأسس صحيحة، لتستفيق الأمة الجزائرية، وتتقدم وتضمن مكانها ضمن الشعوب المتقدمة، فلم يكن تنظيراً على صفحات كتب وجرائد ومجلات، وإنما كان على أرض الواقع. وهذا ما يجعل ابن باديس من المربين والمصلحين القلائل الذين جمعوا بين النظري والعملي، أي بين النظر والتفكير والعمل والتطبيق. قدم من خلاله أفكاره وآراءه الإصلاحية وتطبيقاته العملية التي إذا ما جُمعت تشكل مشروعاً متكاملأ ينطلق من الواقع الجزائري المتردي ليعود لتغيير هذا الواقع، وهذا بتربية النشء ونشر التعليم، مسترشداً بثقافته الدينية العربية الأصيلة .

فإن المتأمل في هذا المشروع الباديسي يجده بأنه يقوم على فلسفة واضحة جسدها عملياً في مختلف المؤسسات التربوية التي استخدمها لهذا الغرض مثل المدارس والمساجد والنوادي والعمل الجموعي والصحفي فكان بسبب ذلك الخير والصلاح للأمة الجزائرية التي انبعثت فيها نهضة انتشرت شرقاً وغرباً وجنوباً، فانتشر التعليم في ربوع الوطن وزاد الوعي عند

الأفراد والجماعات فتغيرت المفاهيم وبدأت بوادر الثورة ضد المستعمر في الظهور، فكانت النتائج إيجابية في خدمة الدين والقيم والثوابت الوطنية أفرزت بعد سنوات قلائل نخبة من العلماء والشعراء والمنقّفين متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية الجزائرية. ولقد عملت هذه النخبة على الدفاع على الثوابت الوطنية ووضعت أسساً جديدة لجيل جديد هو من فجر الثورة وحرر الجزائر.

إن ابن باديس من خلال مشروعه الحضاري كان له أبعاد سياسية واجتماعية وأخلاقية وإصلاحية لأنه يستهدف إصلاح العقائد وتقويم الأخلاق وتكوين الفرد الجزائري وبناء المجتمع والدولة وفق مبادئ وأسس سليمة. ولبلوغ هذه الأهداف والمقاصد اتجه إلى التربية والتعليم باعتبارهما أساس كل إصلاح ونهضة، كما اهتم بالعمل الصحفي وأمن بجذواه وأهميته ودوره في نشر الوعي الإصلاحي، ولم يتوقف عند هذا فقط بل تعداه إلى تشكيل النوادي وتأسيس الجمعيات والإهتمام بالرياضة ومختلف النشاطات المتعلقة بالشباب فكان بحق مشروعاً ثرياً يعبر عن عبقرية مصلح فهم الواقع وعرف المشكلات واقترح الحلول العملية على أرض الواقع .

وبالتالي مشروع ابن باديس الإصلاحي مشروع أصيل يعبر عن أصالة صاحبه وهو الشيخ والإمام والمصلح الفذ، يقول عنه مالك بن نبي: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت تلك ساعة اليقظة وبدأ الشعب الجزائري المخدر يتحرك، ويالها من يقظة جميلة مباركة، يقظة شعب مازالت مقلته مشحونتين بالنوم، فتحوّلت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل، وهكذا استيقظ المعنى الجماعي

وتحولت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب²⁶ " فقد شبهه أحد الدارسين ببسمارك الجزائري لأنه كان يدير لعبة الدين والإصلاح والنهضة والنضال السياسي كما يدير بسمارك العملية السياسية ولعبتها، إذ لا وجود لشخصية في العصر الحديث أثرت على كامل المجتمع الجزائري كما فعل ابن باديس. لذلك اعتبره الشيخ علي المغربي سنة 1935 م أباً للنهضة في الجزائر²⁷.

فالأستاذ تركي رابح مثلاً يصف حركة ابن باديس الإصلاحية بأنها الدرع الواقي وقي الجزائر من خطر الاندماج والنوبان في فرنسا، وأنها الأب الشرعي للثورة الجزائرية التي قامت في أول نوفمبر 1954م

كل هذا يؤكد للدارس أن مشروع ابن باديس الإصلاحي مشروع أمة جزائرية قائم على مرجعيات ثلاث الدين، اللغة، الوطن وهذا ما يجعله متميزاً أصيلاً يعبر عن أصالة هذا الرجل الذي بقي وفياً لأفكاره ومواقفه وهندامه الأصيل فلم يكن تقليداً لمشاريع إصلاحية أخرى، كما أنه مشروع تناول المشكلة الجزائرية وقدم لها الحلول بعقلانية وواقعية فكانت أهدافه واضحة وهي تكوين الإنسان الجزائري تكويناً صحيحاً قائم على العروبة والإسلام.

5- دعوة ابن باديس للمتفتح على الآخر.

26 - مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط11، 2012م، ص 26

27 - رابح تركي: الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص375، نقلاً عن محمد طهاري: الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، ص50.

يعتقد الكثير من الباحثين والدارسين للفكر الفلسفي الجزائري بصفة عامة، والفكر الإصلاحي بصفة خاصة أن ابن باديس ينتمي إلى الاتجاه التراثي المحافظ وهذا اعتقاد صحيح من وجهة نظرنا كون أن ابن باديس أقام مشروعه الإصلاحي على ركائز ثلاث وهي الدين، اللغة، الوطن والتي تمثل محددات الهوية للفرد الجزائري فهي تمثل الأصالة والتراث بكل تجلياته، كما أنه كان يدعو إلى التمسك بالقيم العربية الإسلامية، وبالعبادات والتقاليد الإيجابية فقد جعل شعار جريدة البصائر مثلاً العروبة والإسلام، لكن هذا لايعني أن ابن باديس كان بسيط في تفكيره أو منغلقاً على نفسه وإنما كان يدعو للتفتح على الآخر، وطلب العلم وتقديس العمل، والاستفادة من الحضارة الغربية، وهذا ما نريد أن نوضحه من خلال المواقف الآتية:

- لقد تصور ابن باديس أن القومية العربية لا تقتصر على العرب فقط أي الذي يعيش في الأوطان العربية، وإنما تتحدد القومية العربية باللسان فكل من يتكلم العربية يعتبر عربياً حتى وإن كان هندياً أو صينياً أو أروبياً، وهذا تصور واسع ايجابي للقومية العربية يساعد على التعايش والتسامح والتقارب بين البشر، نظرة عميقة جديدة تتجاوز منطق حكم القبيلة والعشيرة والدولة إلى منطق سيادة اللغة بمعنى استعاب الآخر عن طريق اللغة .

- دعوة ابن باديس الصريحة أبناء وبنات الأمة الجزائرية إلى تعلم لغة غيرهم كاللغة الفرنسية لغة المستعمر ايماناً بدور تعلم اللغات الأجنبية فقد كتب في الشهاب(ج02م/11) مقالاً يبين فيه دور اللغات الأجنبية كون أن هذا أصل من أصول المدنية

والعمران، وأن الحاجة والمصلحة هي الدافع إلى ذلك مستدلاً بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام عندما أمر عليه الصلاة والسلام زيد ابن ثابت بتعلم اللغة العبرية واللغة السريانية،²⁸¹ وهي نظرة جديدة فيها دعوة للتفتح على اللغات والثقافات الأخرى والاستفادة منها.

- تأكيد ابن باديس على دور العلم، فكان يدعو الجميع إلى طلب العلم والمعرفة صغارا وكبارا ولم يقص المرأة من ذلك بل دعا إلى تعليم المرأة العلوم النافعة الأكثر من ذلك فتح المجال أمام المرأة لأن تتعلم مجاناً على خلاف الرجل الذي يدفع مقابل تعلمه، فاهتم بالمرأة وأعطاه حقوقاً في الوقت الذي كان الكثير يعارض تعلم المرأة ايماناً منه بأهمية المرأة المتعلمة العلم النافع في المجتمع ودورها الفعال في تنشئة جيل الغد، يقول ابن باديس: " لن تكتمل حياة الأمة إلا بحياة شطريها الذكر والأنثى. " يقول الشاعر أحمد شوقي:

إذا النساء نشأن في أمية تجرع الرجال جهالة وخمولا.²⁹
فكان ابن باديس يرفض أن تترك المرأة دون تعليم وتثقيف وهذه نظرة سابقة لأوانها تجعل ابن باديس مصلح صادق حقيقي متحضر متفتح لم يقص أحداً في المجتمع.

- إن ابن باديس صاغ معادلة رائعة جداً وهي أنه ربط خصوصية المحدود وعالمية اللامحدود ويظهر هذا عندما يتحدث

¹ - محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 141، 142، 143.

²⁹ - ميلود معزاوي: جمعية العلماء المسلمين، دار التنوير للنشر والتوزيع، ط1، 2004، ص 30:28.

عن الوطن على أنه أوطان الوطن الخاص الجزائر. أما الوطن الآخر عنده بعد الجزائر هو الوطن العربي والاسلامي متمثلاً في الأمة العربية والإسلامية. أما الوطن الأكبر الذي يلتقي فيه مع كل من يجد فيهم صورته البشرية، وحقيقته الإنسانية، ويحس بأنهم أناس مثله هذا الوطن هو الإنسانية.³⁰ هكذا كان تفكير ابن باديس يتسم بالعالمية اعتبر أن الخدمة لا تكون للوطن فقط بل تتعداه إلى خدمة الإنسانية قاطبة وإصال الخير لها.

هذا ويبدو أن ابن باديس يأخذ بفكرة العالمية وليس بفكرة العولمة المتوحشة كما هي اليوم فهو يعلن: "أن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصد ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه." فهو يدعو إلى نبذ التعصب الجنسي الممقوت والحذر من التوحش، ويوصي بالاحسان والأخوة مع كل جنس من أجناس البشر..³¹ هكذا كانت دعوة ابن باديس التفتح على الآخر وخدمته، والتعاون معه على الخير والصلاح.

خاتمة:

نستنتج في الأخير أن ابن باديس فعلاً يمتلك مشروعاً إصلاحياً متكاملأ متوازناً قائم على فلسفة واضحة الأسس والمعالم لخصّها في ثلاث مقومات (الدين الإسلامي، اللغة العربية، الوطن الجزائري) مشروع بين المحافظة على التراث

30 - ابن باديس : الشهاب، ج 3 / م14، ص 122 .

31 - محمد عجوط: مقال بعنوان: فلسفة ابن باديس التربوية بين الخصوصية

الثقافية وعالمية القيم، مجلة الحكمة: العدد 09، 2011، ص 16

والثوابت من جهة، وبين التفتح على الحداثة والمعاصرة من جهة أخرى، وأن هذا المشروع الإصلاحى يهدف إلى غايات عدة أهمها إحداث التغيير على مستوى الأفكار والمفاهيم وهذا بتحرير العقول من الخرافات، ومن الجمود والتبعية ليحدث التغيير على أرض الواقع بتحرير الوطن من قبضة المستعمر، وتحقيق النهضة الفكرية والثقافية، وبناء مجتمع متحضّر متقدم، وهذا لا يكون في نظر ابن باديس إلا عن طريق التربية والتعليم، لذلك يمكن اليوم في الجزائر الاستفادة من هذا المشروع الباديسى في معالجة الكثير من القضايا والمشكلات كمشكلة الهوية والوطنية والتربية... وغيرها.